

المحاضرة العاشرة: الدولة الفاطمية

➤ المكتسبات القبلية:

يفترض في الطالب قبل متابعة هذه المحاضرة أن يكون قد اكتسب ما يلي:

- الإمام بمفهوم الدولة والخلافة في الإسلام ونشأتهما التاريخية.
- معرفة عامة بتطور الدول الإسلامية الكبرى خلال العصر الوسيط.
- الإحاطة بالخريطة السياسية للعالم الإسلامي قبيل القرن الرابع الهجري.
- التعرف على الفرق والمذاهب الإسلامية، خاصة الشيعة ومفهوم الإمامة.
- القدرة على تتبع التسلسل الزمني للأحداث التاريخية وربطها بسياقها السياسي والفكري.

➤ الأهداف العامة:

تهدف هذه المحاضرة إلى تمكين الطالب من:

- التعرف على نشأة الدولة الفاطمية وظروف قيامها السياسية والفكرية.
- فهم الأساس المذهبي والعقائدي الذي قامت عليه الدولة الفاطمية.
- تحديد مراحل توسع الدولة الفاطمية وانتقالها من المغرب إلى المشرق.
- إبراز النظام السياسي والإداري في الدولة الفاطمية.
- الوقوف على المظاهر الحضارية والعلمية في العصر الفاطمي.
- تحليل دور الدولة الفاطمية في التاريخ الإسلامي وتأثيرها في التوازنات السياسية والمذهبية.
- تنمية القدرة على التحليل التاريخي النقدي بعيداً عن الأحكام المسبقة.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

1. الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب:

تلقى أهل المغرب الدعوة الإسماعيلية واحتضانها في حياة الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المتوفي سنة 148هـ، حيث دخل داعيتين هما الحلواني وأبي سفيان إلى بلاد المغرب وتفرقا من أجل مهمة " قلب الأرض " أو حرثها في انتظار قدوم صاحب البذر مستقبلا، وقد نزل أبو سفيان في منطقة تالا وأما الثاني فقد توغل اتجاه المغرب وبالتحديد إلى الناظور، وأبدى كل واحد منهم ورعا وحسن معايشة مع أهله وخدمه حتى طبقت شهرتهما الآفاق وعاد الناس ينسلون عليهم من كل حذب وصوب لسماع منهما فضائل أهل البيت ويأخذون عنهما تعاليم الدعوة الجديدة، وقد تمكن الثاني الحلواني من تشييع قبائل عديدة منها قبائل كتامة، وبعد وفاته دخل صاحب البذر والملقب بأبي عبد الله الشيعي.

بعد الدور التمهيدي الذي اضطلع به كلٌّ من الحلواني وأبي سفيان في تهيئة الأرضية لتقبل الداعية الجديد، بعث ابن حوشب بأبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب الإسلامي، مكلِّفًا إياه بمهمة نشر الدعوة للمذهب الإسماعيلي في تلك الربوع. وقد جاء هذا التكليف في سياق خاص، إذ قال له: « إن أردت القيام بالدعوة للمذهب الإسماعيلي في تلك البلاد، فقد توفي الحلواني وأبو سفيان، ولم يبق غيرك، وقد صارت الأرض ممهدة لك، فبادر فإنها مهيأة. »

وعلى إثر ذلك، غادر أبو عبد الله الشيعي بلاد اليمن متجهاً أولاً إلى مكة المكرمة، حيث قدم إليها في موسم الحج سنة 288هـ/900م فاصداً لقاء حجاج قبيلة كتامة. وقد التقى بهم هناك، واجتمع إليهم، وسمع حديثهم، ولاحظ تركيزهم على فضائل آل البيت، فشاركهم النقاش في هذا الشأن. ولما سألوهم عن وجهته بعد أداء مناسك الحج، أخبرهم بنيتهم التوجه إلى مصر، دون أن يفصح لهم عن مقاصده الحقيقية.

ومع مرور الوقت، تعلّق به أفراد كتامة وأبدوا رغبتهم في مرافقته، لما لمسوه فيه من ورع وزهد، فعادوا جميعاً برفقته. وخلال هذه الرحلة، استطاع أبو عبد الله، بما امتلكه من دهاء وحسن تدبير، أن يقف على مختلف أوضاع حجاج كتامة وأحوالهم. وعندما وصلوا إلى مصر، بدأ يودّعهم، الأمر الذي أثقل عليهم فراقه، فسألوه عن سبب قصده إليها، فادّعى أن له شأنًا يريد قضاءه هناك.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

غير أن رجال كتامة دعوه صراحة إلى التوجه إلى بلادهم، مؤكدين له أن ديارهم أصلح لمقصده، وأنهم أدرى بحقه ومكانته، قائلين: «إن كنت تقصد هذا، فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك». «ولم يزل إلحاحهم عليه قائمًا حتى وافق أخيرًا على المسير معهم، فدخل بلاد كتامة ونزل بينهم في منتصف شهر ربيع الأول سنة 288هـ.

2. دور أبي عبد الله الداعي في إرساء دعائم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب:

وطئ عبد الله أرض كتامة في ربيع الأول من عام 288هـ واستقر في بفج الأخيار (فرجوة) لدى بني سكتان قرب مدينة ميلة، وقد قسم دعوته على الشكل التالي:

- بث الدعوة الإسماعيلية في صفوف قبائل كتامة:

شكلت هذه الأخيرة الفترة الزمنية الأطول في نشاك عبد الله الداعي واتسمت في البداية على أخذ البيعة من المنتسبين الجدد للدعوة الإسماعيلية وتلقينهم مبادئ المذهب، وقد بنى عبد الله مكان حصين لا يبعد عن فج الأخيار يعرف اليوم "إيكجان"، والذي يقع على بعد كيلومترين عن بني عزيز شمال سطيف، واتخذ مركزا حصينا لدعوته بعيدا عن مضايقات ولاية الحكم الأغلبي.

بفضل حنكته وكياسته المتميزة تمكن عبد الله الداعي أن يستميل قلوب الكثيرين من عامة أهل المنطقة ويكون أتباعا مخلصين سماهم "المؤمنين"، وبالرغم من رفض بعض شيوخ قبائل كتامة الدعوة الشيعية إلا أنهم لم يتمكنوا من الوقوف في وجه عبد الله ومن معه.

- منازل معارضييه من بعض شيوخ كتامة وحلفائهم من ولاية الأغلبة:

اجتمع إلى عبد الله العديد من القبائل الكتامية بحيث دخلت دخلت دعوته مرحلة جديدة متمثلة في تأديب القبائل المعارضة بحد السيف ورد عدوان ولاية الأغلبة عن مناطق نفوذ الدعوة الشيعية، ففي ظرف سنتين فقط تمكن عبد الله من إحكام سيطرته المطلقة على مجريات الأحداث ووسعه الأمر في هذا الصدد تكثيف هجماته على خصومه وتحقيق انتصارات متتالية أرغمت الناس على اللحاق بصفه رغبة في وده ورهبة من بطشه وجمع غنائم كثيرة، وسقطت كل المناطق في قبضته ما عدى ميلة الحصينة بأسوارها.

- الزحف على ملك بني الأغلب في شرق بلاد المغرب الأوسط وأفريقية:

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

بعدما استتب الوضع للداعية في صفوف قبائل كتامة واطمئنانه إلى ذلك، حول وجهة اهتمامه إلى الدولة الأغلبية وولاتها بشرق المغرب الأوسط وبلاد إفريقية، حيث كانت بين الطرفين حساسية مفرطة منذ دخول عبد الله الداعي بلاد كتامة أول مرة، والتي أخذت تتطور إلى أن أصبحت عداوة شديدة بينهما، حيث بدأ عبد الله الزحف على حواضر الأغلبة المتاخمة لموقع دار هجرته فج الخير (فرجيوة)، حيث أسقطها جميعها ثم واصل إلى إفريقية وأسقط عاصمة الأغلبة رقادة بالقرب من القيروان ما اضطر الأغلبة إلى الفرار إلى المشرق، وبالتالي سيطر تقريبا على كل شرق المغرب الأوسط حتى إفريقية.

- تخلص المهدي من سجن بن مدرار:

خلال المراحل الأخيرة من انتصارات أبي عبد الله الشيعي، وقبل أن يُنهي بشكل نهائي وجود دولة الأغلبة، بادر إلى إرسال وفد إلى الإمام الفاطمي عبيد الله المهدي (297-322هـ / 909-933م)، لإعلامه بما تحقق من نجاحات عسكرية ودعوية، ولدعوته إلى القدوم إلى بلاد المغرب تمهيدا لإعلان الدولة الفاطمية.

وفي ذلك الوقت، كان عبيد الله المهدي متخفيا في بلدة سَلَمية، خوفاً من ملاحقة العباسيين الذين كانوا يتتبعون أخباره. غير أن أمره انكشف، فاضطر إلى مغادرة الشام متجهاً نحو العراق، ثم واصل سيره مصطحباً ابنه أبا القاسم، وبعض أقاربه ومواليه، متنكراً في هيئة الحجاج، حتى وصل إلى مصر. ومن هناك اتجه إلى طرابلس الغرب، إلا أنه وجد أن الأغلبة لا يزالون يسيطرون على البلاد، وأن أبا عبد الله الشيعي لم يحسم الصراع بعد، مما اضطره إلى مواصلة الرحلة غرباً.

وعلى إثر ذلك، واصل عبيد الله المهدي مسيره حتى بلغ مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى، التي كان يحكمها آنذاك الأمير اليسع بن مدرار. وفي تلك الأثناء، وصل إلى هذا الأخير كتاب من زيادة الله بن الأغلب يُعلمه فيه بأن الرجل الذي يقيم لديه هو نفسه الذي يدعو إليه أبو عبد الله الشيعي، فبادر حاكم سجلماسة إلى القبض على عبيد الله المهدي وسجنه.

ظلّ عبيد الله المهدي قابلاً في سجنه بمدينة سجلماسة إلى أن تمكن الداعية أبو عبد الله الشيعي من تحقيق نصره الحاسم على الدولة الأغلبية. وعلى إثر ذلك، تحرّك أبو عبد الله على رأس قوة عسكرية كبيرة متجهاً نحو سجلماسة لتحرير المهدي، بعد أن أزال في طريقه الكيانات السياسية التي حالت دون وصوله، وفي مقدمتها الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (144-296هـ / 761-908م)، حيث أخضعها وسيطر على عاصمتها تاهرت سنة 296هـ/908م.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

ثم واصل أبو عبد الله الشيعي زحفه حتى بلغ مدينة سجلماسة، وعندما علم أميرها اليسع بن مدرار بقدمه، خرج لملاقاته، لكنه ما لبث أن انهزم وفرّ ليلاً مصطحباً معه أقاربه وأمتعته، بينما دخل أبو عبد الله الشيعي المدينة دون مقاومة تُذكر. وفي ذي الحجة سنة 296هـ/908م، أُطلق سراح عبيد الله المهدي من محبسه.

وبعد ذلك، عاد أبو عبد الله الشيعي برفقة المهدي إلى إفريقية، ثم عُقدت له البيعة رسمياً، وأُعلن خليفة في ربيع سنة 297هـ/909م. وبذلك زال حكم بني الأغلب من إفريقية، واستولى المهدي على مقاليد السلطة، وذكر اسمه في الخطبة، واتخذ لقب «المهدي أمير المؤمنين»، بمساندة قبائل كتامة التي كان لها الدور الحاسم في قيام الدولة الفاطمية. ثم شرع المهدي في تنظيم دولته الناشئة، فقسّم الأعمال والمناصب بين رؤساء كتامة الذين أسهموا في إرساء دعائمها.

3. قيام الدولة الفاطمية بالمغرب:

لم تطل إقامة عبيد الله المهدي بمدينة رقادة الأغلبية حيث قام ببناء عاصمة جديدة تليق بمقامه ببلاد المغرب الإسلامي ألا وهي المهديّة المشيدة عام 297هـ حيث، وهذا يعني نجاح مشروع دعوي على خطى المشروع الإباضي الذي أسس الدولة الرسمية.

أسهم تأسيس مدينة المهديّة في ترسيخ دعائم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي، غير أنّ هذا الإنجاز لم يكن يمثل نهاية المشروع السياسي للفاطميين، بل شكّل مرحلة أولى ضمن رؤية أوسع تهدف إلى بسط نفوذهم على مجمل العالم الإسلامي. فقد انطلق مشروعهم منذ بدايته على أساس طموح خلافي يتجاوز الإطار الجغرافي للمغرب، ويتجه مبدئياً وخطوياً نحو تحقيق السيادة الشاملة.

ولتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي، كان لزاماً على الفاطميين نقل مركز ثقل دولتهم من المغرب الإسلامي إلى المشرق الإسلامي، والبحث عن قاعدة سياسية واقتصادية أكثر متانة. وفي هذا السياق، برزت مصر بوصفها الخيار الأنسب، لما تتمتع به من ثراء اقتصادي، ووفرة في الموارد، فضلاً عن موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتيح السيطرة على أهم المراكز الإسلامية الكبرى، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق، بل ويمكن أيضاً من التقدّم نحو بغداد، حاضرة الخلافة العباسية التي كانت تمثل الخصم السياسي والعقائدي الأبرز للفاطميين.

توطدت دعائم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي منذ قيامها في عهد الخليفة عبيد الله المهدي، ثم تواصل تثبيت أركانها في عهد ابنه وخليفته القائم بأمر الله (322-334هـ / 934-946م). غير أن هذه المرحلة لم تخلُ من الاضطرابات السياسية والعسكرية، إذ عرفت الدولة خلال حكمهما سلسلة من الثورات والفتن، ولا سيما تلك التي شهدتها مدينة القيروان في عهد عبيد الله المهدي، إضافة إلى تصاعد حركة المعارضة المسلحة في عهد القائم بأمر الله.

د. بن عتو رضا

تاريخ الجزائر العام

وقد بلغت هذه الاضطرابات ذروتها في عهد الخليفة المنصور بالله، الذي تولى الحكم سنة 334هـ/946م، حيث واجه أخطر الثورات الداخلية، وفي مقدمتها ثورة أبي يزيد الخارجي، التي كادت أن تقضي على الكيان الفاطمي في المغرب. غير أن المنصور بالله تمكّن من القضاء على هذه الحركة بعد صراع عنيف، وهو ما أسهم في إعادة الاستقرار النسبي إلى البلاد.

وعلى إثر ذلك، عرفت بلاد المغرب حالة من الهدوء والاستقرار، وعادت إلى وضع شبيه بما كانت عليه في عهد الخليفة المهدي، مما مكّن الدولة الفاطمية من استعادة توازنها السياسي والعسكري، والاستعداد لمرحلة جديدة من التوسع والتخطيط الاستراتيجي، خاصة في اتجاه المشرق الإسلامي، في عهد الإمام المعز لدين الله الفاطمي الذي سيعمل على التوسع نحو الشرق.

4. نهاية الدولة الفاطمية ببلاد المغرب:

أدّى انتقال الفاطميين إلى المشرق سنة 327هـ/939م إلى إحداث تحوّل جوهري في أوضاع بلاد المغرب الإسلامي، إذ ترك هذا الرحيل فراغًا سياسيًا استغلّته قوى محلية صاعدة. وكان من أبرز نتائج ذلك بروز بني زيري، الذين أسند إليهم الفاطميون حكم المغرب الأوسط، وجعلوا على رأسهم بلكين بن زيري الصنهاجي، بوصفه واليًا تابعًا لهم. غير أن النفوذ الزيري لم يلبث أن توسّع ليشمل المغرب الأدنى، حيث تمكّن الزيرون من بسط سيطرتهم على إفريقية، مع احتفاظهم — في هذه المرحلة — بالولاء الاسمي للخلافة الفاطمية. وبذلك انتقل عبء إدارة شؤون المغرب الإسلامي إلى هذه الأسرة الصنهاجية، في ظل غياب مباشر للفاطميين بعد انتقالهم إلى مصر.

وهكذا يمكن القول إن الرحيل الفاطمي عن بلاد المغرب شكّل بداية مرحلة جديدة اتسمت بتراجع الحضور الفاطمي المباشر، مقابل صعود القوى المحلية، وعلى رأسها الدولة الزيرية، التي أصبحت الممثل السياسي الفعلي للنفوذ الفاطمي في المغرب الإسلامي.

د. بن عتو رضا
تاريخ الجزائر العام

الدولة الفاطمية في أوج اتساعها.

